الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

بمناسبة يوم السّلام العالميّ

السّلام الزّائف وسياسة الإبادة: تناقض لا يحلّه إلّا الإسلام

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في عالم يشهد أعلى معدّلات الإنفاق العسكريّ في التاريخ، ويحتفل في الوقت ذاته بيوم السّلام العالميّ في الحادي والعشرين من سبتمبر من كلّ عام، نقف أمام واحدة من أكثر المفارقات الحضاريّة إيلاماً في التاريخ الإنسانيّ، ونعايش التّناقض في عالمين: عالم ينتج الصواريخ بالآلاف ويطبع شعارات السلام بالملايين...وعالم تُقام فيه مؤتمرات السلام بينما تدور رحى الحرب على بُعد أميال قليلة من قاعات تلك المؤتمرات...

ولكنّ الأمر أعمق من مجرّد كونه نفاقاً سياسيّاً عابراً، فنحن أمام ظاهرة حضاريّة مُركّبة تبدأ بتحوّل مفهوم السّلام بجوهره إلى سلاح حرب، وأداة هيمنة، ووسيلة إخضاع، وتتعقّد بتحويله لسلام فرض بالقوة، واستخدم لتبرير العدوان، وأصبح قناعاً لأبشع أشكال الظلم، فهذا التّحوّل الخطير في جوهر مفهوم السّلام يطرح سؤالاً جذريّاً: هل يمكن أنْ يكون السّلام مصدراً للحرب بمجرّد كونه سلاماً؟

فأمام هذا الانحراف الحضاريّ الخطير، تبرز الحاجة الماسّة للعودة إلى النّموذج الأصيل، إلى المدرسة المحمديّة التي قدّمت للإنسانيّة أنقى وأصدق معاني السلام، سلام لا يحمل في جعبته بذور الحرب، ولا يخفي خلف شعاراته أجندات الهيمنة، بل سلام يُولد من رحم العدالة، ويترعرع في أحضان الكرامة الإنسانيّة....

فلو سبرنا أغوار المشهد الدوليّ المعاصر، لشهدنا أداءً مسرحيّاً مُحكم الإخراج، تلعب القوى الكبرى فيه دور البطولة في تمثيليّة السلام، بينما تمارس في الواقع أبشع صور العدوان والهيمنة، وتنكشف وراء أستار هذه التراجيديا الطبيعة الحقيقيّة للسّلام المعاصر، فهو سلام الأقوياء الذي يُفرض على الضعفاء، سلام يحمل في جوهره بذور الظلم والقهر والإذلال...

فلو تأمّلنا هذه الأرقام الصادمة- على سبيل المثال- فيما يتعلّق بالحرب على غزّة وحدها لوجدنا : 785 ألف طالب محروم من التعليم، أكثر من 95% من المدارس مدمّرة بالكامل، أكثر من 20 ألف شهيد من الطلبة والمعلمين، أكثر من 140 مدرسة وجامعة محيت من الوجود، و360 أخرى تضررت جزئياً، فهذه هي إفرازات ما صنعته آلات الحروب الطاغية، وما

أفرزته شعارات السلام العالميّ وحقوق الإنسان التي تملأ المنظّمات الدوليّة بياناتها الجوفاء الغوغائيّة...

ولعظيم المفارقة ففي الوقت الذي وصل فيه عدد الفقراء في العالم في عام 2024 إلى أكثر من 808 مليون إنسان يعيشون في فقر مدقع، أيْ ما يشكّل نسبة 10٪ من سكان العالم، فقد وصل الإنفاق العسكري العالميّ في عام 2024 إلى مستويات قياسيّة مرتفعة، إذ بلغ ما يقارب 2,781 تريليون دولار أمريكيّ...

فضلاً عن أنّ ما نشهده اليوم من قراءتنا لهذه الأرقام - وغيرها الكثير من مناظر شاهدة على جرائم ترتكب باسم السلام – يتجاوز كونه مجرّد تناقضات عابرة أو أخطاء في السّياسات، إنّما هو نفاق دوليّ مؤسّس يشكّل العمود الفقري للنظام العالمي المعاصر، فهذا النفاق ليس وليد اللحظة، إنّما هو نتاج تراكمات تاريخيّة من الازدواجيّة المقصودة، إذ تُبنى المؤسّسات الدوليّة على أساس تقديس الشّعارات في العلن وممارسة الوحشيّة في الخفاء....

نعم، هو نفاق مؤسّساتيّ منظّم، تُخصّص له الميزانيّات الضّخمة لصناعة الأقنعة البرّاقة، بينما تُخصّص ميزانيّات أضخم لآلات الدمار التي تعمل خلف هذه الأقنعة، فهذا التأسيس الممنهج للنّفاق يجعل من المستحيل إصلاح النظام من الدّاخل، لأنّ النّفاق ليس خللاً في النظام، بل هو جوهره ومحرّكه الأساسيّ، فمن جوف وعمق هذا النّفاق المؤسّس، تبرز آليّة خبيثة تُسمّى التطبيق الانتقائيّ للقانون الدوليّ، فالقوانين والاتفاقيّات الدوليّة كاتّفاقيّات جنيف وميثاق الأمم المتحدة، لا توضع لتكون مرجعاً عادلاً للجميع، بل لتكون سلاحاً انتقائياً في يد المهيمنين، فنجد القانون الدوليّ تارة يُطبّق بصرامة على الضعفاء والمستضعفين، وتارة يصبح مجرّد حبر على ورق عندما يتعلّق الأمر بجرائم الأقوياء، فهذه الانتقائيّة المقصودة وغزدواجيّة المعايير، تحوّل العدالة الدوليّة من مبدأ إنسانيّ سامٍ إلى أداة قمع وإخضاع، ومن ميزان للحقّ إلى مطرقة في يد الباطل على سندان الشّعوب المستضعفة....

هذا ويعدّ من أبرز الشّواهد المعاصرة على هذا الزيف المؤسّس، ما نشهده من مؤتمرات السّلام المُضلّلة التي تُعقد بينما تستمرّ آلة الدمار في عملها الجهنميّ، فهذه المؤتمرات التي تُسوّق ذاتها كمنابر للحوار والسلام، تكشف حقيقتها المُرّة حين نرى أنّ هدفها الخفيّ لا يتعلّق بوقف العدوان، إنّما بنزع سلاح المقاومة وترك الضحية عارية أمام الجلاّد المُسلّح دون أدنى درع أمان.....

فنحن أمام مؤتمرات تُعيد إنتاج منطق القويّ الذي يفرض شروطه على الضّعيف تحت مسمّى تحقيق عمليّة السّلام، إلاّ أنّ المسمّى الفعليّ هو تحقيق عملية إخضاع وإذلال مُغلّفة بالمصطلحات الدبلوماسيّة الخادعة، فالهدف الخفيّ الفعليّ يرتبط بفكرة تحويل السلام من مطلب إنسانيّ نبيل إلى أداة هيمنة وإخضاع في يد الطغاة، فغدت لأجل ذلك أغلب مناسبات السّلام العالميّة طقوساً جوفاء غوغائية، تُقام لتهدئة الضّمير العالميّ وخلق وهم بأنّ العالم يسعى للسلام، وتُستخدم كمسكّنات مؤقّتة تُخفي الألم دون أنْ تُعالج الدّاء، وتُكرّس لصناعة الشعور الزائف بالإنجازات، في الوقت الذي تزداد فيه جذور الصراع والظلم عمقاً وتفشياً وطغياناً....

وهنا تبرز مفارقة صارخة: كيف يُحتفل بيوم السّلام العالميّ بينما تُقصف المدن وتُهدم البيوت وتُنتهك الحرمات؟ وأيّ احتفال بالسّلام في زمن عاثت به ويلات الحروب فساداً؟

فالسّلام هنا قد بات تمثيليّة مأساويّة تكشف عن إفلاس أخلاقيّ وفكريّ في تعامل العالم مع مفهوم السلام، وفي خضمّ هذا المشهد المأساويّ للسّلام المزيف، تُشرق أنوار المدرسة المحمديّة بنموذج فريد يُقدّم للإنسانيّة معنى حقيقياً للسّلام، سلام يبدأ من القلب والرّوح، إذ يؤسّس الإسلام لعلاقة الإنسان مع خالقه أولاً، ومن ثمّ مع أخيه الإنسان ثانياً، فهذا السّلام يقوم على إقرار صريح بالوحدة الإنسانيّة، حيث لا يُفاضل بين البشر إلا بالتّقوى والعمل الصالح، فهو سلام يُحطّم الحواجز العنصريّة والطّبقيّة، ويُؤسّس لمجتمع إنسانيّ قائم على الكرامة المتساوية لبني البشر على اختلافهم، فقد قال اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:13)

فمن أهمّ ما يُميّز هذا التّصوّر الإسلاميّ للسّلام أنّه يرفض الفصل بين السّلام والعدل، فهما وجهان لعملة واحدة لا يمكن تجزئتها، فالسّلام الذي يُقام على أنقاض العدالة هو سلام مؤقّت هشّ، محكوم عليه بالانهيار عند أوّل اهتزاز، أمّا السّلام الذي يُبنى على أساس العدل فهو سلام راسخ الجذور، عميق الأساس، قادر على مواجهة التّحدّيات والصّمود أمام العواصف....

فهذا الربط العضويّ فيما بين السّلام والعدل يجعل من المستحيل في المنظور الإسلامي قبول ما يسمّى بالسّلام إنْ كان يُكرّس الظّلم أو يُؤيّد الاضطهاد، فالسّلام الحقيقيّ لا يتحقّق إلاّ بعد إقامة العدل وإزالة الظّلم، ومن ثمّ يأتي السّلام كثمرة طبيعيّة للعدالة لا بديلاً عنها....

لذلك فقد وضع الإسلام مبدأً ثورياً في زمانه ولا يزال كذلك اليوم، وتجلّى في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:256)، فهذا المبدأ يقطع الطريق على أيّ صراع دينيّ مقدّس، ويؤسّس لمجتمع متعدّد الأديان والمعتقدات، يعيش أفراده في ظلّ احترام متبادل وحريّة كاملة في ممارسة شعائرهم، فرفض الإكراه في الدّين لا يعني عدم إجبار الناس على اعتناق الإسلام وحسب، إنّما يشمل احترام خياراتهم الدّينيّة وحمايتها، وضمان حقّهم في العيش بكرامة وفقاً لمعتقداتهم، دون خوف أو قلق...

فضلاً عن أنّ هذه المبادئ السّامية التي أسّسها النموذج المحمديّ لم تبق حبراً على ورق أو شعارات مثالية، بل تُرجمت إلى واقع تطبيقي عاش فيه النّاس طعم السلام الحقيقي على أرض الواقع، ومن هذه النّماذج العمليّة للسّلام المحمديّ...

عقد وثيقة المدينة، الذي يعدّ دستور التعايش الأول، فكان أوّل دستور في التاريخ ينصّ على المواطنة المشتركة والحقوق المتساوية لسكّان الدولة، دون النّظر لانتمائهم الدينيّ أو العرقيّ، فهذا الدستور التاريخي نصّ على مبدأ كونهم أمّة واحدة من دون الناس، مُحدّدين بذلك مفهوم المواطنة السّياسيّة التي تجمع الجميع تحت مظلة واحدة، كما نصّ العقد على الحريّة الدّينيّة المطلقة، فلليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مُقرّراً حقّ كلّ فئة في ممارسة شعائرها دون تدخّل أو إكراه....

عهد نجران، الذي يُعدّ وثيقة فريدة في تاريخ العلاقات الإنسانيّة، فقد قدّم هذا العهد النبويّ الكريم تطبيقاً عملياً لمعنى الحماية الشاملة والعدالة المتساوية، فقد قال ﷺ: "لكم ما تحت أيديكم من أموالكم ودمائكم وأملاككم وأعراضكم، وسيحفظ ذمتكم اللّٰه ورسوله"، فهذا ليس مجرّد معاهدة سياسيّة، إنّما تأسيس لمفهوم الأمان الحضاريّ الشّامل الذي يحفظ للإنسان كرامته وحقوقه دون النظر لدينه أو عرقه، فقد ربطت الحماية بضمان اللّٰه ورسوله، ممّا أعطى هذا العهد قداسة تتجاوز المصالح السياسيّة المؤقتة، فنقضه جريمة لا ضدّ الإنسان وحسب، إنّما ضدّ الخالق سبحانه، فضلاً عن أنّ هذه القداسة قد أضفت على السّلام الإسلاميّ قدسيّة وثباتاً لا نجدهما في المعاهدات الوضعيّة، فقد غدا العهد في الإسلام مسؤوليّة أمام اللّٰه قبل أنْ يكون التزاماً أمام البشر، فعهد المسلم أمانة في عنق صاحبه، وميثاق مقدّس لا يجوز نقضه مهما تغيّرت الظّروف أو تبدّلت المصالح....

صلح الحديبيّة، الذي يُمثّل نموذجاً عميقاً للدبّلوماسيّة الإسلاميّة في تحقيق السلام، فعلى الرغم من أنّ شروط الصلح بدت مُجحفة بالمسلمين ظاهرياً، إلاّ أنّ النبيّ ﷺ قبِلها تحقيقاً لمصلحة أعظم تتعلّق بإنهاء الصراع المسلّح وإتاحة الفرصة لانتشار دعوة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فهذا الصلح علّمنا أنّ السياسة الحكيمة قد تقتضي أحياناً التنازل عن مكاسب قصيرة المدى لتحقيق أهداف إستراتيجيّة طويلة المدى...

فتح مكة، وهو تطبيق فعليّ لانتصار العفو على الانتقام، فقد كان النبي ﷺ في أوج قوّته وانتصاره، ولكنّه فضّل أنْ يقدّم للعالم درساً لا يُضاهى في الأخلاق العسكريّة والسياسيّة ، فعندما دخل مكة فاتحاً، كان بإمكانه أنْ ينتقم من كلّ من آذاه وحارب دعوته، ولكنّه اختار العفو والسّماح، فكانت مقولته التاريخية "اذهبوا فأنتم الطُلَقاء" أبعد ما تكون عن كونها مجرّد كلمات كريمة، إنّما كانت بياناً عملياً عن معنى الانتصار الحقيقيّ، ألا وهو انتصار القيم على الأحقاد، وانتصار الحكمة على الانتقام...

إنّ مثل هذه النماذج التطبيقيّة الرائعة تضعنا أمام سؤال حتميّ: لماذا نجحت هذه التجارب التاريخيّة في تحقيق السلام الحقيقيّ، بينما تفشل النّماذج المعاصرة رغم كلّ إمكانيّاتها الماديّة والتقنيّة؟

فعندما نضع هذه النماذج المحمديّة الأصيلة في مقابلة مباشرة مع الواقع المعاصر للسلام المزيّف، تتّضح لنا الهوّة الحضاريّة الشاسعة بين نموذجين يحملان الاسم ذاته لكنّهما يختلفان في الجوهر والمضمون، فهناك اختلاف جذريّ في طبيعة وأسس كلّ نموذج...

فها نحن نرى أنّ السّلام المحمديّ يقوم على مبدأ سلام العزّة لا الذّلة، وسلام القوّة لا الضّعف، فالإسلام لا يدعو إلى سلام المستسلمين الذي يقبل الظلم ويرضى بالهوان، بل يدعو إلى سلام الأعزّاء الذي يُفرض احتراماً وتقديراً لا خوفاً ورهبة، فهذا السلام يُبنى على أساس القوّة الرادعة التي تمنع المعتدين من التفكير في الاعتداء، والعزّة النفسيّة التي ترفض المساومة على الحقوق والكرامات،وهذا في جوهره يشكّل النّقيض تماماً للسّلام المعاصر....

ومن ثمّ نجد أنّ السّلام المعاصر يستمدّ شرعيته من اتّفاق القوى الكبرى ومصالحها المتشابكة، بينما السّلام المحمديّ يستمدّ شرعيته من الوحي الإلهيّ، وهذا الاختلاف في مصدر الشرعيّة ينعكس بوضوح على استقرار

واستدامة كلا النّموذجين، فالسّلام الذي تؤسّسه القوى البشرية يتغيّر بتغيّر موازين القوى ومصالح المهيمنين، أمّا السّلام المؤسّس على الوحي الإلهيّ فيتمتّع بالثبات والاستمرارية دون تقلّبات...

وبينما تُدوّن اتفاقيّات جنيف في القرن العشرين قواعد حماية المدنيين، كان المسلمون يُطبّقون هذه القواعد وأكثر منها منذ عهد النبوة.، فواحدة من أعجب المفارقات التاريخيّة أنّ الأخلاق الحربيّة التي وضعها الإسلام قبل أربعة عشر قرناً تفوق في شمولها وإنسانيّتها ما توصّل إليه القانون الدولي المعاصر، فبينما يُناقش العالم اليوم أخلاقيّات الحرب ويضع لها ضوابط، كان المسلمون قد تجاوزوا هذه المرحلة بقرون، ووضعوا منظومة أخلاقيّة متكاملة تحكم سلوكهم في السلم والحرب..

وبعد، ففي زمن تتكاثر فيه دعوات السلام الزائفة والشعارات المُضللة، يبقى النموذج المحمديّ منارة هداية للبشرية الحائرة، ويبقى هو السلام الحقيقيّ... القائم على التّوحيد الذي يُحرّر الإنسان من عبادة الطواغيت والأهواء..القائم على العدل المطلق الذي لا يُحابي قوياً على حساب ضعيف...القائم على الكرامة الإنسانيّة التي تجعل من كلّ إنسان كياناً محترماً مُكرّماً..القائم على الحرية الحقيقيّة، حريّة الاعتقاد والتفكير والتعبير ضمن إطار القيم الأخلاقيّة السامية...

فهذا هو السلام الذي تحتاجه البشرية اليوم...

سلام له عنوان واحد... لا سلام هيمنة قوّة على ضعف، ولا غنى على فقر، بل سلام عدل يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ويحفظ للجميع كرامتهم وحريتهم.

والنّموذج الإسلاميّ في السّلام ليس مجرّد نظام يخصّ المسلمين، إنّما هو منهج حياة شامل يُقدّم الخلاص للبشرية جمعاء، فالمبادئ الإسلاميّة في العدالة والكرامة الإنسانيّة والحريّة الدينية والوفاء بالعهود، هي مبادئ إنسانيّة عالميّة تتجاوز الحدود الدينيّة والثقافيّة، وتُخاطب الفطرة الإنسانيّة السليمة في كلّ زمان ومكان....

أما تلك الشّعارات المجوّفة والمناسبات الزائفة، فستبقى مجرّد أقنعة مبهرجة على وجوه قبيحة، يُخادعون بها أنفسهم والعالم، لكنّهم لا يخدعون اللّٰه العليم الخبير،﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(البقرة:9)..

فهنا طرح أخير لفكرة طموحة وجريئة في الوقت ذاته على الأمم المتّحدة والشّعوب والدّول ذات الإرادة الحسنة، فعوض الاحتفاء بالسلام في يوم واحد فقط في العام، لماذا لا نجعله التزاماً إنسانياً يستمرّ للعام بأكمله؟

لماذا لا نعلن عام 2026 عاماً عالمياً للسّلام ؟

بحيث لا تكون هذه المبادرة شعاراً وحسب، إنّما ستكون اختباراً حقيقياً لإنسانيّة قادة العالم ودولهم، لكونها تضع قدرتنا الجماعيّة على تجاوز الخلافات والصراعات قصيرة النّظر على المحكّ، فالتحدّي هو:

- هل يستطيع هذا الجيل أنْ يخلق هدنة حقيقيّة ومستدامة لمدة عام واحد؟
- هل سيمنح هذا الجيل للبشريّة عاماً تلتقط فيه أنفاسها، وتعيد توجيه الموارد من صناعة الدمار إلى بناء المستقبل، وفتح نوافذ للأمل والتّعافي؟

ومن رحم هذا التّحدّي يبرز السؤّال الملحّ الذي نوجهه للعالم.....

لو كنّا نمتلك القدرة على تدمير أنفسنا لسنوات، فلماذا لا نستطيع أنْ نمنح أنفسنا السلام لعام واحد؟